

النهرُ المتجمّد

يا نهرُ هل نَضَبْتَ مِياهُكَ فانْقَطَعْتَ عَنِ الْخَرِيرِ
بِالْأَمْسِ كُنْتَ مُرْتِمًا بَيْنَ الْخَدَانِقِ وَالزَّهَوْرِ
بِالْأَمْسِ كُنْتَ تَسِيرُ لَا تَخْشَى الْمَوَانِعَ فِي الطَّرِيقِ
بِالْأَمْسِ كُنْتَ إِذَا أَتَيْتَكَ بِأَكْيَأَ سَلَيْتَنِي
بِالْأَمْسِ كُنْتَ إِذَا سَمِعْتَ تَنْهَدِي وَتَوَجَّعِي
مَا هَذِهِ الْأَكْفَانُ ؟ أَمْ هَذِي قِيُودٌ مِنْ جَلِيدِ
هَا حَوْلَكَ الصَّفَصَافُ لَا وِرْقَ عَلَيْهِ وَلَا جَمَالَ
وَالْحَوْرُ يَنْدُبُ فَوْقَ رَأْسِكَ نَائِرًا أَغْصَانُهُ
تَأْتِيهِ أَسْرَابٌ مِنَ الْغُرَبَانِ تَنْعَقُ فِي الْفُضَا
وَكَأَنهَا بَنَعِيْبُهَا عِنْدَ الصَّبَاحِ وَفِي الْمَسَاءِ
لَكِنْ سَيَنْصَرِفُ الشِّتَا وَتَعُودُ أَيَّامُ الرَّبِيعِ
وَتَكْرَرُ مَوْجَتُكَ النَّقِيَّةُ حُرَّةً نَحْوَ الْبَحَارِ
وَتَعُودُ تَبَسُّمٌ إِذَا يُلَاطَفُ وَجْهَكَ الصَّافِي النَّسِيمُ
وَالْبَدْرُ يَبْسُطُ مِنْ سَمَاهُ عَلَيْكَ سِتْرًا مِنْ لُجَيْنِ
وَالْحَوْرُ يَنْسَى مَا عَتَرَاهُ مِنَ الْمَصَائِبِ وَالْمَحَنِ
وَتَعُودُ لِلصَّفَصَافِ بَعْدَ الشَّيْبِ أَيَّامُ الشَّبَابِ
قَدْ كَانَ لِي يَا نَهْرُ قَلْبٌ ضَاحِكٌ مِثْلَ الْمُرُوجِ
قَدْ كَانَ يُضْحِي غَيْرَ مَا يُمَسِي وَلَا يَشْكُو الْمَلْلَ
أَمْ قَدْ هَرِمْتَ وَخَارَ عِزُّكَ فَانْتَنَيْتَ عَنِ الْمَسِيرِ
تَتَلَوُ عَلَى الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا أَحَادِيثَ الزَّهَوْرِ
وَالْيَوْمَ قَدْ هَبِطْتُ عَلَيْكَ سَكِينَةُ اللَّحْدِ الْعَمِيقِ
وَالْيَوْمَ صِرْتَ إِذَا أَتَيْتَكَ ضَاحِكًا أَبْكَيْتَنِي
تَبْكِي ، وَهَابْكِي أَنَا وَحْدِي ، وَلَا تَبْكِي مَعِي
قَدْ كَبَلْتَنِيكَ وَذَلَلْتَنِيكَ بِهَا يَدُ الْبَرْدِ الشَّدِيدِ ؟
يَجْتَوِ كَنِيْبًا كُلَّمَا مَرَّتْ بِهِ رِيْحُ الشَّمَالِ
لَا يَسْرُخُ الْحَسَنُ فِيهِ مُرَدَّدًا أَلْحَانَهُ
فَكَأَنهَا تُرْثِي شَبَابًا مِنْ حَيَاتِكَ قَدْ مَضَى
جَوْقٌ يُشَيِّعُ جِسْمَكَ الصَّافِي إِلَى دَارِ الْبَقَاءِ
فَتَفْئُكُ جِسْمُكَ مِنْ عِقَالٍ مَكْنَتِكَ يَدُ الصَّقِيعِ
حُبْلَى بِأَسْرَارِ الدُّجَى ، تُثْمَلَى بِأَنْوَارِ النَّهَارِ
وَتَعُودُ تَسْبِيحُ فِي مِياهِكَ أَنْجُمُ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ
وَالشَّمْسُ تَسْتُرُ بِالْأَزْهَرِ مِنْكَبِكَ الْعَارِيَيْنِ
وَيَعُودُ يَشْمُخُ أَنْفَهُ وَيَمِيسُ مُخَضَّرَ الْفِنَنِ
فَيَغْرُدُ الْحَسَنُ فَوْقَ غُصُونِهِ بِدَلِّ الْغُرَابِ
حُرَّ قَلْبِكَ فِيهِ أَهْوَاءٌ وَآمَالٌ تَمُوجُ
وَالْيَوْمَ قَدْ جَمَدَتْ كَوَاجِهُكَ فِيهِ أَمْوَاجُ الْأَمَلِ

فتساوت الأيام فيه : صباؤها و مساؤها
سَيَان فيه غدا الربيعُ مع الخريفِ أو الشتاءِ
نَبَذَتْهُ ضَوْضَاءُ الْحَيَاةِ فَمَالَ عَنْهَا و انْفَرَدَ
وَعَدَا غَرِيباً بَيْنَ قَوْمٍ كَانَ قَبْلاً مِنْهُمْ
يا نهرُ ! ذا قلبي ، أراه كما أراك مُكَبَّلاً
و توازنتَ فيه الحياةُ : نعيمُها و شقاؤها
سَيَان نوحُ البائسينَ ، وَضَحْكُ أبناءِ الصَّفَاءِ
فَعَدَا جَمَاداً لَا يَحْنُ و لَا يَمِيلُ إِلَى أَحَدٍ
و عَذَوْتَ بَيْنَ النَّاسِ لَغْزاً فِيهِ لَغْزٌ مُبْهِمٌ
والفرقُ أنك سوفَ تنشُطُ من عِقَالِكَ ، وهو لا

ميخائيل نعيمة / ديوان "همس الجفون" / ١٩١٧

ميخائيل نعيمة :

وُلد في بَسْكَنتا في جبل صنين بَلِيبان شهر تشرين الأول من عام ١٨٨٩ وأنهى دراسته المدرسية في مدرسة الجمعية الفلسطينية فيها، تبعها بخمس سنوات جامعية في بولتافيا الأوكرانية بين عامي ١٩٠٥ و ١٩١١ حيث تسنى له الاضطلاع على مؤلفات الأدب الروسي، ثم أكمل دراسة الحقوق في الولايات المتحدة الأمريكية (منذ كانون الأول عام ١٩١١) وحصل على الجنسية الأمريكية. انضم إلى الرابطة القلمية التي أسسها أدباء عرب في المهجر وكان نائباً لجبران خليل جبران فيها . عاد إلى بَسْكَنتا عام ١٩٣٢ واتسع نشاطه الأدبي . لُقّب بـ"ناسك الشخروب"، توفي في ٢٢ فبراير ١٩٨٨ .

(<http://adabalarabi.blogspot.com/١٢/٠٧/١٣٩٠/post-٢٠>)